ذكريات الماضي

المغرب - عدد خاص بالذكرى الأولى للمرحوم سعيد حجي
السنة السادسة - العدد 1189 - الخميس 4 ربيع الأول عام 1362 الموافق 11 مارس سنة 1943

عبد الهادي زنيبر

إن كان سعيد قد مات فإن الصحافة العربية بالمغرب لن تموت، وستظل حية باقية ما دام سكان هذا القطر السعيد ينطقون ويكتبون بلغة الضاد، وذلك لأن الصحافة مظهر من مظاهر الفكر في العصر الحديث، فهى إذن في المعنى فكرة والفكرة قد قدر لها الخلود في غابر الأزمان.

وسأحدثكم عن سعيد وعن الصحافة كفكرة راقبت عن كثب نموها ونشورها في فكر سعيد، وفي حديثنا عن سعيد وعن الصحافة يجب أن لا نغفل ذكر الصحافة العربية بمصر، فالصحافة المصرية ستظل صاحبة الأثر الأكبر على جميع النهضات الأدبية والثقافية في جميع الأقطار الإسلامية الناشئة، وسيظل رجال الفكر مثل سعيد مدينين لهذه الصحافة في كل ما شيدوه وما سيشيدونه من الأعمال.

لن أنسى ما حييت تلك المناقشة التي دارت بيننا نحن وجماعة من رفقائنا من تلاميذ الكلية الإسلامية وذلك لأيام خلت بعد حلولي بيروت ملتحقا بهذه الكلية، وكان الوقت مساء وصادف أن كانت ليلة مقمرة من ليالي الصيف الجميلة اتخذنا مجالسنا في حديقة صغيرة تابعة للقسم الذي خصص لنا بالمدرسة، ودار الحديث حول شتى المواضيع

وبالأخص فيما يثيره لغو الصحافة والصحافيون من لجاجات وخصومات بين كبار الكتاب المحدثين، وكان لكبار الكتاب في هذه الجماعة الصغيرة أتباع ومؤيدون، فللعقاد والمازني وأصحابهما من دعاة الاقتباس من الآداب السكسونية مدافعون مناضلون، ولطه حسين وهيكل وأمثالهما من أنصار المدرسة اللاتينية أنصار ومجاهدون.

أما سعيد فكان كما عرفته فيما بعد صحافيا قبل كل شيء، فلم يكن يرى في هذه المشاحنات والمجادلات الأدبية سوى أداة لشحد القرائح ومادة غزيرة لملء أنهر وأعمدة في الصحف، وكنت أعتقد أن هذه المعارك الطاحنة لا تترك وراءها إلا غبارا وعجاجا وأنه سيظل خالدا من هؤلاء الأدباء من كان أسلوبه قويا متينا، ووجدانه وإحساسه عميقا ودقيقا لا يتقيد بالمذاهب والآراء في التعبير عما يخالج ذهنه.

وكم كان سروري عظيما عندما علمت أن هذا رأى سعيد، وليس يخفى على المحبين للآداب ومتذوقيها قيمة هذا السرور عندما يعثر الواحد منهم على مشارك له في الرأي، وكان لرأي سعيد قيمة - يشهد بذلك جميع المتصلين به - سواء اكان ذلك فيما يمس شؤون الحياة العملية الصرفة أو فيما له اتصال بحياة العقل والروح، لذلك لم أملك نفسي من الإعجاب برأيي لأنه رأى سعيد.

ولم يكن ذلك مني اتفاقا ذكر تطاحن هذين المذهبين على أعمدة الجرائد والمجلات في ذلك الوقت، بل لأننا كنا نعتقد أنا وسعيد بأن هذا النضال سيكون له الأثر الأكبر في توجيه الآداب العربية الناشئة التي ستنهجها في المستقبل، ولأن الشخصيات التي كانت تذكي نيران هذه الحرب الشعواء كانت حقا شخصيات قوية مؤثرة زرعت في النشء العربي روحا وحماسا لم يكن له بها سابق معرفة مما كان يطرب له جميع المومنين بمستقبل الآداب العربية الفتية، وكنا نحن من جملة هذا النشء، ولا تسأل عن الآمال التي أخذت تجيش بها صدورنا في ذلك الوقت، وكان سعيد يصور لنا هذه الآمال حقائق راهنة عندما نجلس إليه؛ يحدثنا عن جرائده ومجلاته المستقبلة غير متوان في تذكير كل

واحد منا بالواجبات التي رسمها له للنهوض بعبء هذه المشاريع الجليلة؛ فقد كان يحدثنا عن الطبع وكيفية الإخراج، وعن انتقاء المواضيع وترتيب المقالات، وعن افتتاحياته ، وعن هيأة التحرير واختيار المحررين، وعن النشرات التهذيبية التي ستكون كملحقات بالجرائد اليومية، وعن المجلة التي ستكون خاصة بطبقة المثقفين، وانتقاء لون الغلاف، وقد كان ظاهر الإعجاب بمجلات « دار الهلال » يتخذها دائما قدوة فيما ينوي القيام به، معجبا بلطف وأناقة إخراجها، مثنيا على ذوق مخرجيها.

ولم يكن في استطاعتك أن تتصور سعيدا غير مهتم بالصحف والصحافة، فهو خارج المدرسة لا يقصد غير دور الصحف والطباعة، وداخل المدرسة كنت ترى فوق مكتبه وحوله أكواما من الجرائد والمجلات خذ منها المقصوص وغير المقصوص، وعندما كنت أسائله عاتبا عن خبر هذه القصاصات من الجرائد المكدسة فوق مكتبه، وقد رسم عليها بالقلم الأحمر أو الأزرق كان يجيبني ضاحكا هازئا من جهلي بالدور المهم الذي يلعبه المقص والقلم الأحمر في حياة الصحف والصحافة.

ومن غرائب الصدف وحسن حظ سعيد أن كان من جملة رفقائنا بالمدرسة تلميذ فلسطيني يدعى محمد خياط كان له ولع كبير بالجرائد وكان يوفر على سعيد كثيرا من المشاق، كان يتفق له أن يشترى من العدد الواحد نسختين أو ثلاثة في اليوم، وقصده مرة عبد الكريم - أخ المرحوم - بالدعابة - وأعوذ بالله من عبد الكريم إذا داعب أحدا فهو لا محالة ضاحك منه ومضحك منه الجميع - سأله عبد الكريم عن سبب شرائه العدد الواحد عدة مرات في اليوم، فأجابه محمد خياط أن قصده من ذلك محاسنة بائع الجرائد المسكين، فضحكنا جميعا من جوابه لأننا نعرف السبب الحقيقي في ذلك. فالباعث لمحمد خياط في هذا التكرار ليس هو إجابة داعي المعروف بل إرضاء لولوعه وشغفه المفرط بالجرائد، وكثيرا ما كان يحدث لمحمد خياط ذلك خارج المدرسة أيام العطل عندما يستطيع أثناء تجواله بأنحاء المدينة أن يشترى عدة جرائد ويضيع منها بالأماكن التي يمر بها العدد

الوفير.

وكم كان يلذ لنا أن نتجاذب أطراف الحديث ونحن نقطع شوارع بيروت الأنيقة جيئة وذهابا أو مطلين على ضفاف البحر الأبيض من علياء « جرومانه » بين أدراجها الخضراء اليانعة أو حول جداول نهر « برده » في حدائق دمشق الفيحاء تحت أشجارها الوارفة! إنها لمشاهد تبعث على الأحلام والآمال.

فكم من نهضات شاهدنا تكوينها بالخيال على أعمدة جرائد ومجلات سعيد المستقبلة في شتى ميادين العلم والآداب والاقتصاد والسياسة، وكم من معاهد للعلم والفن والتربية خططنا تصميمات لها؛ وياله من مجتمع نشيط أسسنا دعائمه على اتقاض مجتمعنا البالي المتهدم؛ وبالجملة أى مستقبل زاهر كنا نؤمله لمغربنا العزيز؟

إنها لمطامح وآمال أعجب الآن لكواهلنا الفتية كيف لم تكن تنوء بعبئها لحا الله قوما ينعتون الصبا بالجنون.

فصباك وشبابك ياسعيد كانا حافلين بجلائل الأعمال والأقوال، والآن وقد مرت الأعوام ومرت السنون وأخيرا اختطفتك من بيننا فجيعة الموت الغشوم فما قيمة هذه الذكريات؟ قيمتها يا سعيد في نفوسنا كبيرة، فهى كل ما تبقى لدينا منك سنحتفظ بها في سويداء قلوبنا وسننشرها كما ينشر الربيع الآمال في قلوب المحبين كلما هدانا الشوق والحنين إلى ذكراك.

وداعا وداعا أيها الراحل الكريم وسلام عليك سلام قول من رب رحيم.